كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة

الحافظ

ابن رجب الحنبلي

مصدر هذه المادة:







بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضى، وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، تسليمًا.

خرَّج مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود كما بدأ غريبًا، فطوبى للغرباء**»(١).

وخرجه الإمام أحمد وابن ماجه من حديث ابن مسعود بزيادة في آخره وهي: قيل: يا رسول الله، ومن الغرباء؟ قال: «**النُزَّاع من القبائل**»(٢).

وخرَّجه أبو بكر الآجري وعنده.. قيل: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «**الذين يُصْلحون إذا فسد الناس**»(٣).

وخرَّجه غيره وعنده قال: «**الذين يفرون بدينهم من الفتن**».

وخرَّجه الترمذي من حديث كثير بن عبد الله المزني، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ: «**إن الدين بدأ غريبًا، وسيرجع غريبًا، فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس من سنتي**»(٤).

وخرَّجه الطبراني من حديث جابر عن النبي ﷺ، وفي حديثه: قيل: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «**الذين يصلحون حين فساد**

---

(1) مسلم (١٤٥)، وابن ماجه (٣٩٨٦).
(2) أخرجه أحمد ١/٣٩٨ وابن ماجه ٣٩٨٨.
(3) أخرجه أبو بكر الآجري رقم (١).
(4) أخرجه الترمذي (٢٦٣١).

الناس»[١].

وخرَّجه أيضًا من حديث سهل بن سعد بنحوه [٢].

وخرجه الإمام أحمد من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ، وفي حديثه: «**فطوبى يومئذٍ للغرباء إذا فسد الناس**»[٣].

وخرّج الإمام أحمد والطبراني من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «طوبى للغرباء»، قلنا: ومن الغرباء؟ قال: «**قومٌ قليلٌ في ناس سوءٍ كثيرٍ، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم**»[٤].

وروي عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا وموقوفًا في هذا الحديث: قيل: ومن الغرباء؟ قال: «**الفرَّارون بدينهم يبعثهم الله تعالى مع عيسى بن مريم** عليه السلام»[٥].

قوله: «**بدأ الإسلام غريبًا**» يريد به أن الناس كانوا قبل مبعثه على ضلالة عامة، كما قال النبي ﷺ في حديث عياض بن حمار الذي أخرجه مسلم: «**إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب**»[٦].

فلما بُعِثَ النبي ﷺ ودعا إلى الإسلام لم يستجب له في أول

---

(1) قال الهيثمي في المجمع (٧/٢٧٨): رواه الطبراني في الأوسط.

(2) قال الهيثمي في المجمع (٧/٢٧٨): رواه الطبراني في الثلاثة من حديث سهل بن سعد.

(3) أحمد (١٦٠٤)، وأبو يعلى (٧٥٦).

(4) أحمد (٦٦٦١)، (٧٠٩٤)، قال الهيثمي في المجمع (٧/٢٧٨): رواه أحمد والطبراني في (الأوسط).

(5) أخرجه أحمد في الزهد، ص٧٧، والآجري في الغرباء رقم (٣٧).

(6) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

الأمر إلا الواحد بعد الواحد من كل قبيلة، وكان المستجيب له خائفًا من عشيرته وقبيلته يُؤذى غاية الأذى، ويُنال منه وهو صابر على ذلك في الله عز وجل.

وكان المسلمون إذ ذاك مستضعفين يشردون كل مشرد ويهربون بدينهم إلى البلاد النائية كما هاجروا إلى الحبشة مرتين، ثم هاجروا إلى المدينة. وكان منهم من يعذب في الله ومنهم من يقتل، فكان الداخلون في الإسلام حينئذ غرباء، ثم ظهر الإسلام بعد الهجرة إلى المدينة وعزَّ، وصار أهله ظاهرين كل الظهور، ودخل الناس بعد ذلك في دين الله أفواجًا، وأكمل الله لهم الدين وأتم عليهم النعمة وتوفي رسول الله ﷺ والأمر على ذلك، وأهل الإسلام على غاية من الاستقامة في دينهم وهم متعاضدون متناصرون، وكانوا على ذلك زمن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ثم أعمل الشيطان مكائده على المسلمين وألقى بأسهم بينهم، وأفشى فيهم فتنة الشبهات والشهوات. ولم تزل هاتان الفتنتان تتزايدان شيئًا فشيئًا حتى استحكمت مكيدة الشيطان وأطاعه أكثر الخلق، فمنهم من دخل في طاعته في فتنة الشبهات، ومنهم من دخل في فتنة الشهوات، ومنهم من جمع بينهما، وكل ذلك مما أخبر النبي ﷺ بوقوعه.

فأما فتنة الشبهات: فقد روي عن النبي ﷺ من غير وجه أن أمته ستفترق على أزيد من سبعين فرقة على اختلاف الروايات في عدد الزيادات على السبعين، وأن جميع تلك الفرق في النار إلا فرقة

واحدة وهي ما كانت على ما هو عليه وأصحابه ﷺ [1].

وأما فتنة الشهوات: ففي صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «**كيف أنتم إذا فُتحت عليكم خزائن فارس والروم، أي قوم أنتم؟**» قال عبد الرحمن بن عوف ﵁: نقول كما أمرنا الله، قال: «**أوَ غَير ذلك تتنافسون ثم تتحاسدون ثم تتدابرون**»[2].

وفي صحيح البخاري عن عمرو بن عوف عن النبي ﷺ قال: «**والله ما الفقرَ أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تُبْسطَ عليكم الدنيا كما بُسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كماَ أهلكتهم**»[3].

وفي الصحيحين من حديث عقبة بن عامر عن عمر عن النبي ﷺ معناه أيضًا.

ولما فتحت كنوز كسرى على عمر بن الخطاب ﵁ بكى فقال: «إن هذا لم يُفتح على قوم قط إلا جعل الله بأسهم بينهم». أو كما قال.

وكان النبي ﷺ يخشى على أمته هاتين الفتنتين كما في مسند الإمام أحمد عن أبي برزة عن النبي ﷺ قال: «**إنما أخشى عليكم الشهوات التي في بطونكم وفروجكم ومضلات الفتن**». وفي رواية «**ومضلات الهوى**»[4].

(1) انظر السلسلة الصحيحة حديث رقم ٢٠٣ و ٣٠٤.
(2) مسلم (٢٩٦٢).
(3) البخاري (٣١٥٨)، (٤٠١٥)، ومسلم (٢٩٦١).
(4) أخرجه أحمد رقم (١٩٧٩٣، ١٩٧٩٤)، (١٩٨٠٩).

فلما دخل أكثر الناس في هاتين الفتنتين أو إحداهما أصبحوا متقاطعين متباغضين بعد أن كانوا إخوانًا متحابين متواصلين؛ فإن فتنة الشهوات عمَّت غالب الخلق ففُتنوا بالدنيا وزهرتها، وصارت غاية قصدهم، لها يطلبون، وبها يرضون، ولها يغضبون، ولها يوالون، وعليها يعادون، فقطعوا لذلك أرحامهم، وسفكوا دماءهم، وارتكبوا معاصي الله بسبب ذلك!.

وأما فتنة الشبهات والأهواء المضلة فبسببها تفرق أهل القبلة وصاروا شيعًا، وكفَّر بعضهم بعضًا، وأصبحوا أعداءً وفرقًا وأحزابًا بعد أن كانوا إخوانًا، قلوبهم على قلب رجلٍ واحدٍ، فلم ينج من هذه الفرق كلها إلا الفرقة الواحدة الناجية وهم المذكورون في قوله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك**»[1] وهم في آخر الزمان الغرباء المذكورون في هذه الأحاديث، الذي يصلُحون إذا فسد الناس، وهم الذين يُصلِحون ما أفسد الناس من السنة، وهم الذين يفرون بدينهم من الفتن، وهم النُزَّاع من القبائل، لأنهم قلوا، فلا يوجد في كل قبيلة منهم إلا الواحد والاثنان، وقد لا يوجد في بعض القبائل منهم أحدٌ كما كان الداخلون إلى الإسلام في أول الأمر كذلك، وبهذا فسر الأئمة هذا الحديث.

قال الأوزاعي في قوله ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ**». أَمَا إنه ما يذهب الإسلام، ولكن يذهب أهل السنة

---

(1) أخرجه البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

حتى ما يبقى في البلد منهم إلا رجل واحد، ولهذا المعنى يوجد في كلام السلف كثيرًا مدح السنة ووصفها بالغربة ووصف أهلها بالقلة، فكان الحسن – رحمه الله تعالى – يقول لأصحابه: «يا أهل السنة ترَّفقوا – رحمكم الله – فإنكم من أقل الناس».

وقال يونس بن عبيد: «ليس شيء أغرب من السنة، وأغرب منها من يعرفها». وروي عنه أنه قال: «أصبح من إذا عرف بالسنة فعرفها غريبًا، وأغرب منه من يعرفها!».

وعن سفيان الثوري قال: «استوصوا بأهل السنة فإنهم غرباء».

ومراد هؤلاء الأئمة بالسنة: طريقة النبي ﷺ التي كان عليها هو وأصحابه؛ السالمة من الشبهات والشهوات.

ولهذا كان الفضيل بن عياض يقول: «أهل السنة من عرف ما يدخل في بطنه من حلال».

وذلك لأن أكل الحلال من أعظم خصال السنة التي كان عليها النبي ﷺ وأصحابه ﭫ.

ثم صار في عرف كثير من العلماء المتأخرين من أهل الحديث وغيرهم السنة عبارة عما سَلِمَ من الشبهات في الاعتقادات خاصةً في مسائل الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر. وكذلك في مسائل القدر، وفضائل الصحابة.

وصنفوا في هذا العلم تصانيف وسموها كتب السنة. وإنما خصوا هذا العلم باسم السنة؛ لأن خطره عظيم والمخالف فيه على شفا هلكة!

وأما السنة الكاملة فهي الطريق السالمة من الشبهات والشهوات كما قال الحسن، ويونس بن عبيد، وسفيان والفضيل، وغيرهم.

ولهذا وُصف أهلها بالغربة في آخر الزمان لقلتهم وغربتهم فيه؛ ولهذا ورد في بعض الروايات كما سبق في تفسير الغرباء.. «**قومٌ صالحون قليل في قوم سوء كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم**».

وفي هذا إشارة إلى قلة عددهم وقلة المستجيبين لهم والقابلين منهم وكثرة المخالفين لهم والعاصين لهم؛ ولهذا جاء في أحاديث متعددة مدح المتمسك بدينه في آخر الزمان وأنه كالقابض على الجمر، وأن للعامل منهم أجر خمسين ممن قبلهم، لأنهم لا يجدون أعوانًا في الخير [١].

وهؤلاء الغرباء قسمان:

أحدهما: من يصلح نفسه عند فساد الناس، **والثاني**: من يصلح ما أفسد الناس من السنة وهو الأعلى القسمين، وهو أفضلهما.

---

(1) أخرج أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٦٠)، وابن ماجه (٤٠١٤)، وابن حبان (١٨٥٠) (موارد) والحاكم ٣٢٢/٤ من حديث أبي أمية الشعباني قال: سألت أبا ثعلبة الخشني، فقلت: يا أبا ثعلبة، كيف تقول في الآية: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾؟ قال: أما والله لقد سألت عنها خبيرًا، سألتُ عنها رسول الله ﷺ فقال: «بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحًا مطاعًا وهوىً متبعًا ودُنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك – يعني بنفسك – ودع عنك العوام، فإن من ورائكم أيامِ الصبر، الصبر فيه مثل قبض على الجمر، للعامل فيهم مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله».. وزادني غيره، قال: يا رسول الله، أجر خمسين منهم؟ قال: «أجر خمسين منكم».. واللفظ لأبي داود وهو حديث صحيح.

وقد خرَّج الطبراني وغيره بإسناد فيه نظرٌ من حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ: «**إن لكل شيء إقبالاً وإدبارًا، وإن من إقبال هذا الدين ما كنتم عليه من العمى والجهالة وما بعثني الله به، وإن من إقبال هذا الدين أن تفقه القبيلة بأسرها حتى لا يوجد فيها إلا الفاسق والفاسقان فهما مقهوران ذليلان، إن تكلما قُمعا وقهرا واضطهدا، وإنَّ من إدبار هذا الدين أن تجفوا القبيلة بأسرها حتى لا يُرى فيها إلا الفقيه والفقيهان فهما مقهوران ذليلان، إن تكلما فأمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر قُمعا وقهرا واضطهدا، فهما مقهوران ذليلان لا يجدان على ذلك أعوانًا ولا أنصارًا**»[١]!.

فوصف في هذا الحديث المؤمن العالم بالسنة الفقيه في الدين بأنه سيكون في آخر الزمان عند فساده مقهورًا ذليلاً لا يجد أعوانًا ولا أنصارًا.

وخرَّج الطبراني أيضًا بإسناد فيه ضعف عن ابن مسعود عن النبي ﷺ في حديث طويل في ذكر أشراط الساعة قال: «**وإن من أشراطها أن يكون المؤمن في القبيلة أذل من النقد**». والنقد: هم الغنم الصغار.

وفي مسند الإمام أحمد [٢] عن عبادة بن الصامت أنه قال لرجل من أصحابه: «يوشك إن طالت بك الحياة أن ترى الرجل قد قرأ القرآن على لسان محمد ﷺ فأعاده وأبداه وأحل حلاله وحرم حرامه

(1) قال الهيثمي في المجمع (٧/٢٦٢): «رواه الطبراني وفيه علي بن يزيد وهو متروك».
(2) المسند (٤/١٢٥، ١٢٦).

ونزل عند منازله لا يحور فيكم إلا كما يحور الحمار الميت». ومثله قول ابن مسعود: «يأتي على الناس زمان يكون المؤمن فيه أذل من الأمة».

وإنما ذل المؤمن آخر الزمان لغربته بين أهل الفساد من أهل الشبهات والشهوات، فكلهم يكرهه ويؤذيه لمخالفة طريقته لطريقتهم، ومقصوده لمقصودهم، ومباينته لما هم عليه.

ولما مات داود الطائي قال ابن السماك: «إن داود نظر بقلبه إلى ما بين يديه فأعشى بقلبه بصر العيون، فكأنه لم ينظر إلى ما أنتم إليه تنظرون وكأنكم لا تنظرون إلى ما إليه ينظر، فأنتم منه تعجبون، وهو منكم يعجب، استوحش منكم أنه كان حيًّا وسط الموتى».

ومنهم من كان يكرهه أهله وولده لاستنكار حاله، سمع عمر بن عبد العزيز امرأته مرة تقول: أراحنا الله منك. قال: آمين.

وقد كان السلف قديمًا يصفون المؤمن بالغربة في زمانهم كما سبق مثله عن الحسن، والأوزاعي، وسفيان وغيرهم.

ومن كلام أحمد بن عاصم الأنطاكي – وكان من كبار العارفين في زمان أبي سليمان الداراني – قال: «إني أدركت من الأزمنة زمانًا عاد فيه الإسلام غريبًا كما بدأ، وعاد وصف الحق فيه غريبا كما بدأ، إن نزعت فيه إلى عالم وجدته مفتونًا بحب الدنيا، يحب التعظيم والرياسة، وإن نزعت فيه إلى عابد وجدته جاهلاً في عبادته مخدوعًا صريعًا، عدوه إبليس وقد صعد به إلى أعلى درجة العبادة وهو جاهل بأدناها، فكيف له بأعلاها؟ وسائر ذلك من

الرعاع: فقبيح أعوج، وذئاب مختلسة، وسباعٌ ضاريةٌ، وثعالب جارية! هذا وصف عيون أهل زمانك من حملة العلم والقرآن ودعاة الحكمة».. خرَّجه أبو نعيم في (الحلية)[١].

فهذا وصف أهل زمانه فكيف بما حدث بعده من العظائم والدواهي التي لم تخطر بباله ولم تَدُر في خياله؟!

وخرَّج الطبراني من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**المتمسِّك بسنتي عند فساد أمتي له أجر شهيد**»[٢].

وخرَّج أبو الشيخ الأصبهاني بإسناده عن الحسن قال: «لو أن رجلاً من الصدر الأول بُعِث اليوم ما عرف من الإسلام شيئًا إلا هذه الصلاة».

ثم قال: «أما والله لئن عاش إلى هذه المنكرات فرأى صاحب بدعةٍ يدعو إلى بدعته أو صاحب دنيا يدعو إلى دنياه فعصمه الله عز وجل وقلبه يحن إلى السلف الصالح فيتبع آثارهم ويستن بسننهم ويتبع سبيلهم كان له أجر عظيم».

وروى ابن المبارك عن الفضيل عن الحسن أنه ذكر الغني المترف الذي له سلطانٌ يأخذ المال ويدعي أنه لا عقاب فيه، وذكر المبتدع الضال الذي خرج بسيفه على المسلمين وتأول ما أنزل الله في الكفار على المسلمين.

---

(1) الحلية ٩/٢٨٦.

(2) أخرجه الطبراني في الأوسط كما في مجمع البحرين للهيثمي ١/٢٤ وعنه أبو نعيم في الحلية (٨/٢٠٠) والحديث ضعفه الشيخ الألباني – رحمه الله – انظر السلسلة الضعيف (٣٢٧).

ثم قال: «سنتكم – والذي لا إله إلا هو – بينهما: بين الغالي، والجافي، والمترف، والجاهل، فاصبروا عليها؛ فإن أهل السنة كانوا أقل الناس الذين لم يأخذوا مع أهل الإتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في أهوائهم، وصبروا على سنتهم حتى أتوا ربهم، فكذلك إن شاء الله فكونوا».

ثم قال: «والله لو أن رجلاً أدرك هذه المنكرات يقول هذا: هلم إليَّ، فيقول: لا أريد إلا سنة محمد ﷺ يطلبها ويسأل عنها، إن هذا ليعرض له أجر عظيم، فكذلك كونوا إن شاء الله تعالى».

ومن هذا المعنى ما رواه أبو نعيم وغيره عن كميل بن زياد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل صائح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق».

ثم ذكر كلامًا في فضل العلم إلى أن قال: «إن ها هنا لعلمًا جمًا – وأشار بيده إلى صدره – لو أصبت له حملة، بل أصيب لَقِنا غير مأمون عليه مستعملاً آلة الدين للدنيا، ومستظهرًا بنعم الله على عباده وبحججه على أوليائه، أو منقادًا لحملة الحق لا بصيرة في أحنائه، ينقدح الشك في قلبه لأول عارض من شبهة، ألا لا ذا ولا ذلك، أو منهومًا باللذة سلس القياد للشهوة، أو مغرمًا بالجمع والادخار، ليس من رعاة الدين في شيء، أقرب شبهًا بهما الأنعام السائمة، كذلك يموت العلم بموت حامليه. اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم بحجة، إما ظاهرًا مشهورًا أو خائفًا مغمورًا لئلا تبطل حجج الله وبيِّناته. وكم ذا وأين أولئك؟ والله الأقلون عددًا

والأعظمون عند الله قدرًا، يحفظ الله بهم حججه وبيِّناته حتى يودعوها نظراءهم ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، وباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون، وأَنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها متعلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه، والدعاة إلى دينه، آه... آه شوقًا إلى رؤيتهم، انصرف إذا شئت!»[(١)].

فقسَّم أمير المؤمنين ﷺ حملة العلم إلى ثلاثة أقسام:

قسم هم أهل الشبهات: وهم من لا بصيرة له من حملة العلم، ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة فتأخذه الشبهة فيقع في الحيرة والشكوك، ويخرج من ذلك إلى البدع والضلالات.

وقسم هم أهل الشهوات، وحظهم نوعان:

أحدهما: من يطلب الدنيا بنفس العلم فيجعل العلم آلة لكسب الدنيا.

والثاني: من همه جمع الدنيا واكتنازها وادخارها.. وكل هؤلاء ليسوا من رعاة الدين وإنما هم كالأنعام. ولهذا شبه الله تعالى من حُمِّل التوراة ثم لم يحملها بالحمار الذي يحمل أسفارًا، وشبه عالم السوء الذي انسلخ من آيات الله وأخلد إلى الأرض واتبع هواه بالكلب، والكلب والحمار أخس الأنعام وأضلُّ سبيلاً.

والقسم الثالث من حملة العلم: هم أهله وحملته ورعاته والقائمون بحجج الله وبيناته. وذكر أنهم الأقلون عددًا الأعظمون عند الله قدرًا؛ إشارة إلى قلة هذا القسم وغربته من حملة العلم.

---

(1) الحلية ١/٧٩-٨٠.

وقد قسَّم الحسن البصري رضي الله عنه حملة القرآن إلى قريب من هذا التقسيم الذي قسمه علي رضي الله عنه لحملة العلم..

قال الحسن: قُرَّاء القرآن ثلاثة أصناف: «صنف اتخذوه بضاعة فيتأكلون به، وصنف أقاموا حروفه وضيعوا حدوده واستطالوا به على أهل بلادهم واستندوا به لطلب الولاية، أكثر هذا الضرب من حملة القرآن، لا كثَّرهم الله، وضرب عمدوا إلى دواء القرآن فوضعوه على داء قلوبهم، فركدوا به في محاريبهم وحنوا به في برانسهم واستشعروا الخوف، وارْتَدَوا الحزن، فأولئك الذين يسقي الله بهم الغيث وينصر بهم على الأعداء، والله لهؤلاء الضرب في حملة القرآن أعز من الكبريت الأحمر بين قراء القرآن».

فأخبر أن هذا القسم – وهم قراء القرآن – جعلوه دواء لقلوبهم فأثار لهم الخوف والحزن أعز من الكبريت الأحمر بين قراء القرآن.

ووصف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه هذا القسم من حملة العلم بصفات، منها أنه هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة.. ومعنى ذلك أن العلم دلَّهم على المقصود الأعظم وهو معرفة الله فخافوه وأحبوه حتى سَهَّل ذلك عليهم كل ما تعسر على غيرهم، فلم يصل إلى ما وصلوا إليه ممن وقف مع الدنيا وزهرتها واغتر بها ولم يباشر قلبه معرفة الله وعظمته وإجلاله، فاستلانوا ما استوعر منه المترفون؛ فإن المترف الواقع مع شهوات الدنيا وزينتها ولذاتها يصعب عليها ترك لذاتها وشهواتها؛ لأنه لا عوض عنده من لذات الدنيا إذا تركها فهو لا يصبر على تركها. فهؤلاء في قلوبهم العوض الأكبر بما وصلوا إليه

من لذة معرفة الله ومحبته وإجلاله، كما كان الحسن يقول: «إنَّ أحباء الله هم الذين ورثوا طيب الحياة وذاقوا نعيمها بما وصلوا إليه من مناجاة حبيبهم، وبما وجدوا من لذة حبه في قلوبهم...» من كلام يطول ذكره هنا في هذا المعنى.

وإنما أَنِسَ هؤلاء بما استوحش منه الجاهلون؛ لأن الجاهلين بالله يستوحشون من ترك الدنيا وشهواتها؛ لأنهم لا يعرفون سواها فهي أُنسهم، وهؤلاء يستوحشون من ذلك ويستأنسون بالله وبذكره، ومعرفته، ومحبته، وتلاوة كتابه.. والجاهلون بالله يستوحشون من ذلك ولا يجدون الأنس به.

ومن صفاتهم التي وصفهم بها أمير المؤمنين علي ﷺ أنهم صحبوا الدنيا بأبدان، أرواحها معلقة بالنظر الأعلى، وهذا إشارة إلى أنهم لم يتخذوها وطنًا، ولا رضوا بها إقامة ولا مسكنًا، إنما اتخذوها ممرًا و لم يجعلوها مقرًا. وجميع الكتب والرسل أوصت بهذا، وقد أخبر الله تعالى في كتابه عن مؤمن آل فرعون أنه قال لقومه في وعظه لهم: ﴿يقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩].

وقال النبي ﷺ لابن عمر: «**كُنْ في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، فكأنك بالدنيا ولم تكن، وبالآخرة ولم تزل**»(١)... وفي رواية: «**وعدَّ نفسك من أهل القبور**».

ومن وصايا المسيح المروية عنه عليه السلام، أنه قال لأصحابه:

---

(1) أخرج البخاري شطره الأول رقم (٦٤١٦).

«اعبروها ولا تعمروها».

وعنه ﷺ أنه قال: **«من الذي يبني على موج البحر دارًا؟! تلك الدنيا فلا تتخذوها قرارًا».**

فالمؤمن في الدنيا كالغريب المجتاز ببلدة غير مستوطن فيها يشتاق إلى بلده وهمه الرجوع إليها، والتزود بما يوصله في طريقه إلى وطنه، ولا ينافس أهل ذلك البلد المستوطنين فيه في عزهم، ولا يجزع مما أصابه عندهم من الذل.

قال الفضيل بن عياض: «المؤمن في الدنيا مهموم حزين همه مرمة جهازه».

وقال الحسن: «المؤمن في الدنيا كالغريب لا يجزع من ذلها ولا ينافس في عزها، له شأن وللناس شأن».

وفي الحقيقة فالمؤمن في الدنيا غريب لأن أباه لما كان في دار البقاء ثم خرج منها فهمُّه الرجوع إلى مسكنه الأول، فهو أبدًا يحن إلى وطنه الذي أُخرج منه، كما يقال: حب الوطن من الإيمان، وكما قيل:

كـــم مـــنزل في الأرض يألفـــه الفـــــــ
ـــــــتى وحنينـــه أبـــدًا لأوَّل مَنْـــزل

ولبعض شيوخنا في هذا المعنى:

فحـــيَّ علـــى جنـــات عـــدن فإنهـــا
منازلُـــــكَ الأُولى وفيهـــــا المخـــــيَّمُ

ولكنَّنـــا سَــــبْيِ العــــدوِّ فهـــل تـــرى
نعــــــود إلى أوطاننـــــــا وَنــــــــسْلَمُ
وقـــد زعمـــوا أن الغريـــبَ إذا نــــأى
وشــــطت بـــه أوطانـــه فهـــو مغـــرم
فـــأي اغتـــراب فـــوق غربتنـــا الـــتي
لهـــا أضـــحت الأعـــداءُ فينـــا تَحْكُـــمُ

والمؤمنون في هذا القسم أقسام: منهم من قلبه معلق بالجنة، ومنهم من قلبه معلق عند خالقه وهم العارفون. ولعل أمير المؤمنين عليًا - رضي الله عنه - إنما أشار إلى هذا القسم؛ فالعارفون أبدانهم في الدنيا وقلوبهم عند المولى.

وفي مراسيل الحسن عن النبي ﷺ يرويه عن ربه: «علامة الطهر أن يكون قلب العبد عندي معلقًا، فإذا كان كذلك لم ينسني على كل حال، وإذا كان كذلك مننت عليه بالاشتغال بي كيلا ينساني، فإذا لم ينسني حركت قلبه، فإذا تكلَّم تكلم بي، وإذا سكتَ سكت بي، فذلك الذي تأتيه المعونة من عندي».

وأهل هذا الشأن هم الغرباء، وغربتهم أعز الغربة، فإن الغربة عند أهل الطريقة غربتان: ظاهرة وباطنة.

فالظاهرة: غربة أهل الصلاح بين الفساق، وغربة الصادقين بين أهل الرياء والنفاق، وغربة العلماء بين أهل الجهل وسوء الأخلاق، وغربة علماء الآخرة بين علماء الدنيا الذين سُلِبوا الخشية والإشفاق، وغربة الزاهدين بين الراغبين فيما ينفد وليس بباق.

وأما الغربة الباطنة: فغربة الهمة، وهي غربة العارفين بين الخلق

كلهم حتى العلماء، والعباد، والزهاد؛ فإن أولئك واقفون مع علمهم، وعبادتهم، وزهدهم، وهؤلاء واقفون مع معبودهم لا يعرجون بقلوبهم عنه.

فكان أبو سليمان الداراني يقول في صفتهم: «وهِمَّتهم غير همة الناس، وإرادتهم الآخرة غير إرادة الناس، ودعاؤهم غير دعاء الناس».

وسئل عن أفضل الأعمال، فبكى وقال: «أن يطلع على قلبك فلا يراك تريد من الدنيا والآخرة غيره».

وقال يحيى بن معاذ: «الزاهد غريب الدنيا، والعارف غريب الآخرة».

يشير إلى أن الزاهد غريب بين أهل الدنيا، والعارف غريب بين أهل الآخرة، لا يعرفه العباد ولا الزهاد، وإنما يعرفه من هو مثله وهمته كهمته.

وربما اجتمعت للعارف هذه الغربات كلها أو كثير منها أو بعضها فلا يسأل عن غربته حينئذ. فالعارفون ظاهرون لأهل الدنيا والآخرة.

قال يحيى بن معاذ: «العابد مشهور والعارف مستور».

وربما خفي حال العارف على نفسه لخفاء حالته وإساءة الظن بنفسه.

قال إبراهيم بن أدهم: «ما أرى هذا ألأمر في رجل لا يعرف ذلك من نفسه ولا يعرفه الناس».

وفي حديث سعد عن النبي ﷺ: «**إن الله يحب العبد الخفي**

التقي»[1].

وفي حديث معاذ عن النبي ﷺ: «**إن الله يحب من عباده الأخفياء الأتقياء الذين إذا حضروا لم يُعرفوا، وإذا غابوا لم يُفقدوا، أولئك أئمة الهدى ومصابيح العلم»**[2].

وعن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: «طوبى لكل عبدٍ لم يعرف الناس، ولم تعرفه الناس وعرفه الله منه برضوان، أولئك مصابيح الهدى تُجلى عنهم كل فتنة مظلمة».

وقال ابن مسعود - رضي الله عنه -: «كونوا جدد القلوب، خلقان الثياب، مصابيح الظلام، تخفون على أهل الأرض، وتعرفون في أهل السماء».

فهؤلاء أخص أهل الغربة، وهم الفرَّارون بدينهم من الفتن، وهم النُزَّاع من القبائل الذين يحشرون مع عيسى عليه السلام، وهم بين أهل الآخرة أعز من الكبريت الأحمر فكيف يكون حالهم بين أهل الدنيا، وتخفى حالهم غالبًا على الفريقين، كما قال:

تواريت عن دهري بظل جناحه
فعيني ترى دهري وليس يراني
ولو تسأل الأيام ما اسمي؟ لما دَرَتْ
وأين مكاني؟ ما عَرَفْنَ مكاني

---

(1) أخرجه مسلم (٢٩٦٥)، وأحمد (١٤٤١)، (١٥٢٩).

(2) أخرجه ابن ماجه رقم (٣٩٨٩) بلفظ مقارب. قال البوصيري في الزوائد: في إسناده عبد الله بن لهيعة وهو ضعيف.

ومن ظهر منهم للناس فهو بينهم ببدنه، وقلبه معلق بالنظر الأعلى، كما قال أمير المؤمنين ﵁ في وصفهم:

جـــسمي معـــي غَيْــرَ أَنَّ الــروحَ عنْــدَكُمُ
فالجـــــسمُ في غُرْبـــة والـــرُّوحُ في وَطَـــن

وكانت رابعة العدوية – رحمها الله تعالى – تنشد في هذا المعنى:

ولقـــد جعلْتُـــكَ في الفـــؤاد محـــدثي
وأبحـــتُ جـــسْمي مَـــنْ أراد جلوســـي
فالجـــسمُ مـــني للحبيـــب مـــؤانس
وحبيـــبُ قلـــبي في الفـــؤاد أنيـــسي

وأكثرهم لا يقوى على مخالطة الخلق، فهو يفر إلى الخلوة ليستأنس بحبيبه؛ ولهذا كان أكثرهم يطيل الوحدة.

«وقيل لبعضهم: ألا تستوحش؟ قال: كيف أستوحش وهو يقول: أنا جليس من ذكرني».

وقال آخر: «وهل يستوحش مع الله أحد؟».

وعن بعضهم: «من استوحش من وحدته فذلك لقلة أنسه بربه».

وكان يحيى بن معاذ كثير العزلة والانفراد، فعاتبه أخوه فقال له: إن كنت من الناس فلابد لك من الناس. فقال يحيى: إن كنت من الناس فلابد لك من الله. وقيل له: إذا هجرت الخلق فمع مَن تعيش؟ قال: مع مَن هجرتُهم له.

هجـــــرتُ الخلــــق طُــــرًا في هواكــــا
وأَيْتَمَـــــــتُ العيـــــال لكـــــي أراكــــا
فلــــو قَطَّعْــــتَني في الحــــــبِّ إربًــــا
لمـــــا حــــــنَّ الفـــــؤادُ إلى ســــــواكا

وعوتب ابن غزوان على خلوته فقال: «إني أصبت راحة قلبي في مجالسة مَن لديه حاجتي».

ولغربتهم من الناس ربما نُسب بعضهم إلى الجنون لبعد حاله من أحوال الناس كما كان أويس يقال ذلك عنه.

وكان أبو مسلم الخولاني كثير اللهج بالذكر لا يَفْتُر لسانه، فقال رجل لجلسائه: أمجنون صاحبكم؟ قال أبو مسلم: يا ابن أخي! لكن هذا دواء الجنون.

وفي الحديث عن النبي ﷺ: «**اذكروا الله حتى يقولوا: مجنون**»[1].

وقال الحسن في وصفهم: «إذا نظر إليهم الجاهل حسبهم مرضى وما بالقوم من مرض». ويقول: «قد خولطوا وقد خالط القوم أمر عظيم هيهات، والله مشغول عن دنياكم».

وفي هذا المعنى قال:

وحرمـــــة الــــودِّ مــــا لي عــــنكم عــــوضُ
ولــــيس لي في ســــواكم ســــادتي غــــرضُ

---

(1) أخرجه أحمد (١١٦٥٣) وابن السني (٤)، والحاكم (١/٤٩٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وهو حديث ضعيف. انظر الأحاديث الضعيفة (٥١٧).

وقد شرطتُ على قوم صَحبْتُهُم
بأنَّ قلبي لكم من دونهم فَرَضُوا
ومن حديثي بهم قالوا: به مرضُ
فقلتُ: لا زال عني ذلك المرضُ

وفي الحديث أن النبي ﷺ أوصى إلى رجل فقال: «**استح من الله كما تستحي من رجلين من صالحي عشيرتك لا يفارقانك**»[١].

وفي حديث آخر عنه ﷺ قال: «**أفضل الأعمال أن تعلم أن الله معك حيثما كنت**»[٢].

وفي حديث آخر أنه سئل ﷺ: ما تزكية المرء نفسه؟ قال: «**أن يعلم أن الله معه حيث كان**».

وفي حديث آخر عنه ﷺ قال: «**ثلاثة في ظل الله يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلى ظله**». فذكر منهم: «**رجلاً حيث توجه علم أن الله معه**»[٣].

وثبت عنه ﷺ أنه سئل عن الإحسان فقال: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[٤].

---

(1) أخرجه ابن عدي (٢/٥٣، ١/٢٠٣) عن صفدي بن سنان: ثنا جعفر ابن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة مرفوعًا. وهو حديث ضعيف جدًا. انظر الأحاديث الضعيف (١٥٠٠).

(2) أخرجه الطبراني في الكبير، وأبو نعيم في الحلية، من حديث عبادة ابن الصامت ﷺ، وهو حديث ضعيف. انظر الأحاديث الضعيفة (٢٥٨٩).

(3) أخرجه الطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة ﷺ، وهو حديث ضعيف جدًا. انظر الأحاديث الضعيفة (٢٤٤٤).

(4) أخرجه البخاري (٥٠)، (٤٧٧٧)، ومسلم (٩، ١٠).

ولأبي عبادة في هذا المعنى أبيات حسنة أساء نُقُولها في مخلوق وقد أصلحت منها أبياتًا حتى استقامت على الطريقة:

كــأن رقيبًــا منــك يرعــى خــواطري
وآخــر يرعــى نــاظري ولــساني
فمــا بَــصرَتْ عينــاي بعــدك منظــرًا
يــسوؤك إلا قلــت قــد رمقــاني
ولا بــدرت مــن فــيَّ بعــدك لفظــة
لغــيرك إلا قلــت قــد سمعــاني
ولا خطــرت مــن ذكــر غــيرك خطــرة
علــى القلــب إلى عرَّجــا بعنــاني
إذا مــا تــسلَّى القاعــدون علــى الهــوى
بــذكر فــلان أو كــلام فــلان
وجــدت الــذي يُــسلي ســواي يــشوقني
إلى قــربكم حــتى أمــلَّ مكــاني
وإخــوان صــدق قــد ســئمت لقــاءهم
وأغــضيت طــرفي عنــهم ولــساني
ومــا الغــض أســلى عنــهم غــير أنــني
أراك كمــا كــل الجهــات تــراني

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.